الورقة الرّابعة

المُعادلات أكثر أهميَّة بالنِّسبَةِ إليَّ..
السِّياسَة للحَاضِر.. والمُعادلات للأبَديَّة.

ألبرت آنشتاين

الطُّموح عَقارٌ يَجعلُ مُدمِنِيه
مُستسلِمينَ للجُنون.

إميل سيوران

"أيّ فعْلةٍ مجنونَة هذه أغضَبَتْ والِدَكَ يا غيث؟!"

كانت هذه كلِماتُ الخال ضاهر في بلدَةِ بعَبدات[١]، عندَما لجأ إليهِ ابنُ اختِهِ غيث بعدَ أن طرَدَهُ والِدُه هو الآخر منَ البَيت، وفَضَحَ الحَتمِيُّ مؤامرَةَ الجُنونِ المُتمَرِّدِ الخَبيْء في شَهوَةِ غيث والخادمَة التُّركيَّة الفاتنة روجين. كانَ هذا الغرام كائِنًا خفيًّا يَعيشُ معَ أفرادِ

[١] بلدة تقع على سفح قريبٍ من مدينة بيروت.

أسرةِ فارس الرّاسي.. ولسنواتٍ قليلة.. كأنَّهُ شَبَحٌ! فإذا البَيتُ مَسكونٌ باللذَّةِ المَريضَة.. بالغِواية.. بالدَّهشَةِ والثَّوْرَة.. وَغيث ثورَةٌ بحَدِّ ذاتِه! أبوهُ فارس يَرَى فيه شَجَاعة ونبَاهة قلَّ نظيرُها.. هوَ رَجُلٌ عَمَليٌّ مادِّيّ.. تاجر لا يَرَى في الحَيَاةِ غيرَ مَشروع استثمار وصَفقةٍ وربْح. ويبدو جليًّا أنَّ غيث أخذَ عن أبيهِ الطّموحَ وحُبَّ المال.. ولم يَذُقْ من عُذوبةِ رقَّةِ والدَتِه وشَفافيَّتِها قطرَة. والفلسَفةُ العَمَليَّةُ التِّجاريَّة التي ضَخَّها فارس في ذِهنِ ولَدِهِ غيث.. أنتجَتْ في نهايةِ المَطاف.. ذئبًا لا يَرفُّ لهُ جَفنٌ عندَما تَعَضُّ أنيابُ ظُلمِهِ وطَمَعِه أعناقَ نِعاجِ الضّعفِ والمُسَالمَة.

"ليسَ هامًّا ماذا حَدَثَ يا خالي.. سأنامُ عندَكم.. لا أدري كم.. رَيثما يَهدأ غضَبُ أبي"

وسألَ الخال ثانيةً:

- هل يعلمُ أبوكَ أنَّكَ هنا؟ فأجابَ غيث:

- لا. وأضاف:

- صدِّقني يا خالي، فارس يُحبُّني. وسأعودُ عندَما تَهدأ الأمور.

وفي اليَومِ التَّالي اتَّصلَت والدةُ غيث هاتفيًّا بأخيها ضاهر.. وطمأنَها هذا الأخير:

- لا تخافي يا أختي غيث بخير، وهو باقٍ عندَنا الآن. فقالت له وهي تغُصُّ بدَمْعتِها:

- الصَّبي "مَنزوع" يا أخي.. لم أحسِنْ تربيَتَه.

وهكذا أرادَ غيث البقاءَ عندَ بيتِ خالِهِ ضاهر في بعَبدات مدَّةً ريثما تعبُرُ العاصِفة.. وكانتْ بداية الصَّيف. ولكنَّ هذه المُدَّة القصيرَة التي قضاها في بيتِ خالِهِ كانتْ مُمتِعَةً ومثيرَةً في آنٍ معًا، بل هي مفصلٌ تاريخيٌّ رسَمَ لهُ خارطةَ طريق وحَيثيَّاتِ المَرحلة المُقبلة، وما تبقّى لهُ من عُمرٍ في دُنيانا هذِه. وكانتْ أيضًا كافيةً لمَسْحِ روجين من حاسُوبِ ذاكرَتِهِ بالكامِل. ابنةُ خالِهِ حَنان لا تنتمي إلى دائِرَةِ تفضيلاتِه في النِّساء.. ولكنَّ صديقاتِها كذلك. وصديقاتُ حَنان الفاتنات.. كثيرًا ما يأتينَ إليها! فكانَ عندَ بيتِ خالهِ عُصفورًا مُغرِّدًا بينَ غُصونِ السِّحرِ والأنوثة.. مُلاطفًا هذِهِ ومُمَازحًا تلكَ ومُغازلاً

هاتيك.. كأنَّهُ طَليقٌ من زَوجتِهِ ويبحَثُ عن خَليلَةٍ سِواها. وإذا كانتْ علاقتُهُ الفُضوحيَّةُ برُوْجين امتدَّتْ لسَنواتٍ فهو حتمًا يُشبهُ المُطلَّقين! وكازانوفيّاتُهُ المَوتورَةَ هذه لمْ تُبقِهِ عندَ بيتِ خالِه غيرَ عشرينَ يومًا فقط! وقد أصبَحَ هو في مَرحلةِ المُراهقة الأخيرَة فالرُّجُولة.. أي في بدايةِ أعوامِ عِشرينيَّاتِه.

لقد أقامَتِ الشَّقرَاءُ الفاتنة إيميه جَبُّور، وهي صَديقةٌ لصَديقةِ حَنان ابنةِ خالِه، سَهرَةَ Party بمُناسبَةِ نجاحِها في البكالوريا قسم ثان، ودَعَتْ ثُلَّةً منَ الشَّبابِ والصَّبايا ليُشاركوها فَرْحتَها هذه. وهكذا مُناسبَة إن هي إلاَّ غُصُونٌ وارفة لِطيورِ الغَزَلِ والحُبِّ والغَيْرَة، وفَيضِ النَّظرَاتِ الغاويَة والخُصور المِغناجِ في الرَّدْهَة. إنَّهُ الشَّباب.. والشَّبابُ حلُمُ العُمرِ الوامِض.. وفردَوسُهُ المَفقود. والشَّبابُ كذلك عَبَاءَةُ الحُبِّ الأولى، وَالحُبُّ في الشَّيْخوخةِ.. كأنَّهُ.. مُتسابقان غيرُ مُتكافئَين البَتَّة: القلبُ والجَسَد. وفي السَّهرَة.. ذَوَتِ الأضْواءُ في ذلكَ المَنزلِ الفسيحِ الغارق في دَغْلةٍ خَضْراءَ ساحِرَة، وذي الشُّرُفاتِ الرَّحبَةِ المُشرفة على مُنحدَراتِ اللَّوزِ والزَّيتون وقَزَماتِ السِّنديان. فصَدَحَتِ الموسيقى الغَرْبيَّة، وكانتْ في الثَّمانينات مرغوبَةً منَ الأجيالِ أكثر منَ الشَّرقيِّ بكثير، قالت حَنان لابنِ عمَّتِها غَيث: "قمْ لنَرقُص"، ولبَّى دَعوتَها وانضمّا إلى لَفيفِ الرَّاقصين. كانتْ الموسيقى صاخبَة في البداية، ثمَّ راحَتْ تتحَوَّل شَيئًا فشَيئًا إلى هادئَة Slow. وكانَ كلُّ ثنائيٍّ متلاصِقَين مُلتَحِمَين.. يَتخدَّران بهُدوءٍ.. ويَسخُنان على وَهَجاتِ أغنيَةِ كيني روجرز الشَّهيرَةَ Lady. ولكنَّ عَينَي غيث فراشتان تَقفِزانِ بينَ وُرودِ الأنوثَة باحثَتَينِ عنِ التي تُوافِقُ مِزاجَه.. فوجَدَ أميرَةَ الحَفلة إيميه جَبُّور أوفرَهُنَّ حُسنًا وجاذبيَّة. رآها تُراقصُ شابًّا:

– من هو هذا الشَّابّ الذي يُراقِصُ إيميه؟ همَسَ في أذُنِ حَنان.. وأجابَتْه حنان:

– إنَّه أحَدُ عُشَّاقِها.

– أحَدُ عُشَّاقِها!! فقالت له مُداعبَة:

– إيّاكَ وأن تصبحَ واحدًا منهم. وسألها ثانية:

– جَديد أم قديم؟ فأجابَت ونبرَةُ صوتِها تَشِي بوَمضَةِ غَيْرَة:

– مُعْجَبو إيميه جَبُّور كثيرون.. ولكنَّها طبعًا لا تفكِّرُ في الارتباط حاليًّا.

– لماذا؟

– تُريدُ أن تكمِلَ دراستَها.

ثمَّ راحَ غيث ما تبَقَّى من السَّهْرَة يَتَحيَّنُ الفرصَة للتَحدُّثِ إلى إيميه، وأعيَتْهُ الحيلة ونفدَ صَبرُه! فطلبَ من إحدى صديقاتِ حنان، وهي بدَورِها صديقة لإيميه، أن تُعرِّفَهُ على صاحبَةِ المُناسبَة، فأذعنَتِ الصبَيَّةُ لإرادتِه وخَدَمتْهُ. قالَ غيث لإيميه وَهُما يَتعارَفان، وكانَ ينظرُ بعَنيْنِ تشعَّانِ دَهشةً وابتهالاً.. كأنَّهُ رأى نِساءَ الأرضِ جَميعَهُنّ في عَينَي إيميه، أو انه رأى تجَسُّدًا ما.. مُفاجئًا.. لأفروديت أو عَشتار:

– مبروك يا إيميه ليسَ لنجَاحٍ واحِد.. بل لنَجاحَين اثنَين. فأجابَتْ إيميه مُستغربة:

– نَجَاحَين؟!

– النَّجاح الأوّل تفوّقكِ في البكالوريا طبعًا..

– وما هو الثّاني؟؟ قالتْها وهي تبتَسِمُ بغنجٍ ودَلال، وأجابَها:

– نَجَاحُكِ في جَعْلِ قلبي مُتيَّمًا بعَينَيكِ العَسَليَّتَنِ السَّاحِرَتين.

وهذه الغَزَليَّةُ القصيرَةُ الواحِدَة كانتْ جَوَازَ مُرُورٍ إلى مزاجِ وكيمياء إيميه. قالت له:

– شكرًا لكَ يا مِذوق. عيناكَ هي الأجمَل.. أنتَ لطيف. فقالَ من فَورِهِ مُستفيدًا بالكامِلِ منَ الفرصَة:

– أرجوكِ لا تدَعيني أترُك حفلَتَكِ الرَّائعَة قبلَ أن تُكرِميني بشَرَفِ الرَّقص مَعَك.

فأجَابَتْ مُرَحِّبَةً كأنَّها تُريدُها قبلَه:

– هيَّا قُمْ.. أنتَ تستَحِقُّ أكثرَ من هذا.

وراحا يُلوِّنانِ الحَلَبةَ ضِحكًا وَحرَكة وابتِهاجًا. كانَ رقصُها يَفيضُ حياةً وشَبَقًا. معَ غيث بدَتْ كأنَّها خرَجَتْ عن طَورِها، وهي لمْ تتَعَرَّفْ بَعدُ عليه! إيقاعُ خَطَواتِهَا ودَلالُ الخَصْرِ وغُنجُ الكَتِفَيْن وشبَقُ النَّظَرَات... كأنَّ الشَّبابَ الذي لا يَشيخُ مُلكٌ للجَمَالِ السَّجينِ في عَسَلِ عَينَيْها الآسِرَتَين. وبَثَّ غيث في أذنَيها بعضًا منَ الفنِّ الغزَليّ الذي يجعلُ المرأة تُذعِنُ لأمرِ الحُبّ. وفي ربع ساعةٍ ضَحِكا وتغامَزَا وتهامَسا كثيرًا. ولأيّامٍ تلَتْ هذه الحفلةَ حدَثَ اتِّصالان على هاتفِ بيت خالِه: الأوّل هو من قام به مُحادِثًا إيميه، والثاني إيميه هي التي اتَّصلَتْ طالبَةً الحَديث معَه. ويومَ الأحد صباحًا في الكنيسةِ تحادَثا طويلاً! ولاحظَ خالُ غيث الغَيرَةَ تتَّقِدُ في قلبِ ابنتِهِ حَنان، فذهبَ بنفسِهِ إلى صِهرِه فارس وأقنعَهُ بالعُدولِ عن مَوقِفِه وعوْدَةِ ابنِهِ.. فعادَ غيث في اليَومِ التّالي إلى بيتِ أبيه. ثمَّ اتَّصلَتْ إيميه جَبُّور مرَّةً بَعدَ رَحيل غيث.. وكلَّمَتْها حَنان بجَفاءٍ لتقولَ لها أنَّ القصَّةَ انتهَتْ وغيث رَحَل. ولكنَّ القصَّة بينَ غيث وإيميه لم تنتَهِ قَطّ.. وحتمًا لن تكونَ نِهايةَ المَطاف لرحلةِ كازانوفيَّاتِهِ الوُصُوليَّة معَ الجنسِ اللَّطيف.

وجاءَ العامُ الدِّراسيّ الجامعيّ، وحدَّثَ فارسَ ولدَهُ غَيث أن يختارَ بينَ الحقوق والاقتصاد أو العلوم المَصرفيَّة، فاختارَ غيث الأخيرَة. وفي هذه المَرحلة بدأت تنضجُ شَخصيَّة غيث الرّاسي وتتَّضِحُ سِماتُها وتكتَمِل. وهي ليسَتْ منَ النَّوعِ المثاليّ حتمًا! ثالوثٌ مُخيفٌ شكَّلَ تَركيبتَهُ النَّفسيَّة: المال، اللذَّة، القوَّة. وراحَ يَحلمُ بالثَّرْوَة غيرَ عابئٍ بالأدَوات.. لاعِبًا على هذا الثّالوثِ الشَّيطانيّ كرَقصِ أناملِ عازفٍ بارع على آلةِ البيانو. المالُ يُنتِجُ النِّساء، والنِّساءُ تَستَدرجُ القوَّة، والقوَّةُ بدَورِها غِطاءٌ وحِماية للمالِ والنِّساءِ معًا. الدّونجوانيَّة تؤثِّرُ في المَرأة، والحِيلةُ تصنَعُ المال، وشبَكةُ العِلاقاتِ البازاريَّة دَعائمُ قوَّة. الذي يَملكُ المالَ والنِّساءَ قويٌّ، والذي يَملكُ القوَّةَ والمال كازانوفا زَمانِهِ، والذي يملكُ القوَّةَ والمَرأة مُستثمِرٌ ناجِحٌ رابحٌ دائمًا. وهذه العَقيدَة ارتكزَتْ على مَهاراتٍ عَمَليَّة ثلاث هي الكذِبِ والحيلةُ وفَنُّ الرِّياء والمَسْرَح. تلكَ هي باختصار فلسفَةُ غيث التي آمنَ بها منذ بدايتِه وعاشَها. ولم تلحَظْ حِساباتُهُ البتَّة طبعًا، أنَّ "هَرطقتَهُ الوُجوديَّة" هذه سوفَ تودي به إلى ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥. هذا وكانَ غيث رياضيًّا متألِّقًا أيضًا، ومنذُ المُراهقَة الأولى، في لُعبَةِ الكرَةِ الطّائرَة، قبلَ أن تَستَفيقَ في نفسِهِ

تلكَ النَّوازعُ الغريبَة المَريضَة في مَرحلَةٍ مُتقدِّمَة. ثمَّ بدَأَ يَدرسُ العلومَ المَصرفيَّة. وَرَاحَت صُقورُ طموحاتِهِ تطيرُ عاليًا، ومَشاريعُهُ تتشوَّفُ المَليونَ الأولى منَ الدُّولارات. كانَ بَرمًا جدًّا بتجارةِ أبيه، وهي مَحدودةٌ في آفاقِها وتناميها بالنِّسبَةِ إلى طموحاِته الوثَّابَة. المَليون الأولى فقط..! متى حصلَ عليها فهيَ مِن ذاتِها تجُرُّ وراءَها أخَواتِها بكلِّ سهولة.. تمامًا كما تجُرُّ الفاكونةُ الأولى القِطارَ كلَّه.. والغايةُ في عُرفِهِ تبرِّرُ الواسِطَة. وهلِ الميكيافيليَّة إلاَّ عُصابٌ مُزمِنٌ لم تتحَدَّثْ عنه مَدرَسَةُ التَّحليلِ النَّفسِيّ البتَّة؟ وهكذا انتهَتِ السَّنة الأولى في الجامعةِ.. وبدأ ذلكَ الصَّيفُ الذي كانَ حافلاً بالمَهرجاناتِ الرِّياضيَّةِ ومُبَارياتِ الكُرَةِ الطّائِرَة التي كانتْ رائِجَةً كثيرًا في الثَّمانينات من القرنِ الماضي، وكانَ غيث لاعِبًا أساسيًّا في فريق (مرفأ الضبيِّة). وفريقُ (مرفأ الضبيِّه) منَ الأنديةِ الأولى ذات الشَعبيَّة الواسِعَة. فاحتشدَ في ذلكَ المساءِ الصَّاخِب جُمْهورٌ كبيرٌ في ملعَبِ نادي (الكهرَباء الزُّوق) لمُشاهدَةِ فريقين كبيرَين: مرفأ الضبيِّه والكَهرَباء الزُّوق. كانت مباراةً حماسيَّة ماراتونيَّة، وانتهَتْ بفوز مرفأ الضبيَّة بصعوبة على الكَهرباء الزُّوق. جلَسَ غيث، وقد أبلى بلاءً حسنًا في المُباراة، على مقعَدٍ بلاستيكيٍّ في رُكنٍ يدهنُ فَخذَيهِ بالمَرهَم ويُجفِّفُ وَجهَهُ وعُنقَهُ ويشربُ قليلاً منَ المَاء. فشَعَرَ بشبَحٍ يَقتربُ منهُ، وَصَوتٍ أنثويٍّ عَذب يَخِزُ سَمعَه:

– أنا مُدينةٌ لكَ بتَهنئَة.. مبروك فوزُكم بهذه المباراة الرَّائعَة.

فاستدارَ نحوَ الصَّوتِ بغريزةٍ فضوليَّة، تمامًا كانجذابِ المِسمارِ إلى المغناطيس، ورأى الحِذاءَ الرِّياضِيَّ والجينز الضيِّق القصير.. وقميصَ الفوشيا يتلألأُ من ورائِهِ ثديانِ مُشرئِبَّان. هتَفَ جاحِظَ العَينَيْن:

– إيميه جَبُّور؟!!

– حَذِرْت. لم أتغيَّرْ كثيرًا عَليك.

مسَحَ وَجهَه وساعِدَيهِ جيِّدًا، ونهضَ وصافحَها بحَرارَة.. و"ضِحكتُه رَطل":

– عاشَ مَن رآكِ يا إيميه! منذ متى وأنتِ هنا؟ لماذا لم أركِ قبلَ المُباراة؟

– لم أعرفْ أنَّكَ أحَدُ لاعبي (مرفأ الضبيِّه) حتّى أعلنَ المِذياعُ اسمكَ. ثمَّ رأيتُكَ بسُهولة في المَلعَب.

– لوَحدِكِ أو معَكِ أصدقاء؟ فأجابَتْ:

– جئتُ معَ ابنةِ عَمَّتي وشَابَّين صَديقَين. أنا باقية حتى أيلول في "أدونيس"[٢] عندَ عَمَّتي.

فقالَ لها مُرتجلاً شيئًا طريفًا:

– فرَّقَنا البَشَر.. وَجمَعَنا القَدَر.. يا ذاتَ العَينَين العَسَليَّتَين الحُلوَتين.

– ظَريف! كما أنتَ منذ لقائِنا عندَنا في بعَبدات، هل تذكر؟

فانتهَزَ الفرصَةَ.. وأوحَتْ لهُ رَبَّةُ الجُوعِ بَعدَ مباراةٍ مُضنِيَة، فِكرَةً مُلهِمَة:

– بلى أذكرُ جيِّدًا. أنظري.. رُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ألفِ ميعاد. أنا الآنَ أدعوكِ لنتَعَشَّى معًا في مكانٍ قريبٍ من هنا.. ثمَّ أوصلُكِ بَعدَها إلى بَيْتِ عمَّتِك. لا ترفُضي دَعوَتي.. بلييز!

ورَحَّبَتْ بدَعوتِهِ مِن فَورِها.

أخذَ دوشًا سَريعًا في حمَّاماتِ النّادي وتَعطَّر. كانت هيَ تنتظرُهُ تحتَ الشَّجَرَة بجانبِ السَيَّارات.. ورأَتْهُ بلباسِهِ الأنيق: بنطلون وحذاء بُنيَّيْن وقميصٍ زَرقاء مُضلَّعَة مشكولة الكمَّين إلى السَّاعِدَين، والحَقيبَة الرِّياضيَّة مُعلَّقة في كتِفِه. سارا نَحوَ الباركينغ.. فتحَ لها الباب وَأصعدَها إلى سيَّارتِهِ الرِّيتمو الحَمراء الرِّياضيَّة الدِّيكابوتابل التي اشتراها له أبوه، وكانت من طراز سَنَتِها. جلسَتْ إيميه في السيَّارَة.. رائحَةُ عِطرِهِ التي دَوَّخَتْ رأسَها والسَّاعةُ الثَّمينةُ في مِعصَمِهِ والموسيقى الغربيَّةُ الرُّومنسيَّة.. تلكَ هيَ التَّركيبَةُ الكيميائيَّة للتّأثيرِ في كيمياءِ دِمَاغِ المَرأة. فتَحوَّلَ غَيث الرَّاسي.. بهذه "البروباغندا" المِثاليَّة الباهِرَة التي صَنَّعَها لنفسِهِ: المَوهبَة الفِطريَّة والتألُّق في الميدانِ الرِّياضيّ ووَفرَة المال والسيَّارَة السَّاحِرَة.. إلى كازانوفا بعَلامَةٍ فارقة، وقُبلَةَ أنظار الفتيَاتِ

---

[٢] حيّ في مدينة جونيه.

اللَّوَاتي رَأينَ فيه فارسًا من بَناتِ أحلامِ يَقظَتِهِنّ ومَنامِهِنّ أيضًا. غيث أضاعَ سنةً قبلَ الدُّخول لدراسة العلوم المَصرفيَّة، ولكنَّ إيميه جبُّور كانتْ فنَّانةً شاعريَّة المزاج.. فاختارَت بلا كثيرِ تفكير دراسةَ الهَندسَة الدّاخليَّة، فتعادلَ الاثنان عندئذٍ: هو سَنَة ثانيَة علوم مَصرفيَّة، وهي أيضًا في سَنَتِها الثانيَة في الهندسَة الدّاخليَّة والفنون الزُخرفيَّة. وشتَّانَ بَينَ هذا وذاك! هو يتعاملُ معَ الأرقام، ويَرى الوجودَ في منظارِ المُعادلاتِ الرَّقميَّة نتائجَ حَتميَّة أكيدَة، وهي ترى الوجودَ مجموعةً من الكونتراستات والتَّاسُقاتِ الجَميلة شكلاً ولونًا وموسيقىً وإحساسًا. سألَها وهما يتناولانِ الطّعام:

– أما زلتِ معَ ذاكَ الشّاب؟ فأجابت بسُؤالٍ مُفاخِرَة:

– أيّ واحِدٍ منهم تقصُد؟

– شَابّ تلكَ السَّهرَة طبعًا. وأجابَتْ أيضًا بنَبْرَةٍ مازِحَة:

– لم أعُدْ أذكرْ..ربَّما لا زالَ واقِفًا في الطّابور.. فانتَبِهْ أنتَ لنفسِك.

فقالَ لها مُمَازحًا هو الآخر:

– إنتبهي أنتِ لنفسِكِ أيضًا، كي لا أوقِفَكِ في طابوري أنا يا حُلوَه!

وهكذا راحا يتحادَثانِ في كلِّ شَيء. كانتْ سَعيدَةً مَطرُوبةً إزاءَ "قَفَشَات" غَيث الظَّريفة. تمازَحا وتَضاحكا.. والكلامُ يجُرُّ الكلامَ عن غيرِ قصدٍ منهما.. كأنَّهما أصدِقاء منذ زمَنٍ بَعيد! هيَ الكيمياء. والكيمياءُ تعني انصهارَ عنصُرَين مُنسَجمَيْن ثمَّ يَتَحوَّلان إلى عنصرُ ثالث جَديد. والكيمياءُ النَّفسيَّة بينَ شَخصين هيَ ذوَبانُ الواحِد في الآخر.. وبالتّالي فالواحِدُ منهما قبلَ حالةِ الحُبِّ والانصهار هو غيرُهُ فيها. وقد قالَ أفلاطون أنَّ العاشقَين كانا واحدًا في عالمِ المُثُل. وَإيميه جَبُّور هي المَرأة الأولى التي قدَحَتْ شرارَةَ فكرَةَ الزَّواج في عَقلِ غَيث.. هذا معَ وجودِ عدَدٍ منَ العابراتِ في حياتِهِ.. ومعَ وجودِ حياةٍ جنسيَّةٍ جانبيَّةٍ رَديفةٍ مُتوازيَة معَ انطلاقةِ هذه العِلاقة الهادِفَة! أحيانًا تُسرِّعُ العلاقاتُ العابرَة المبكرَة في نضوجِ فكرَةِ الزّواج في الرّأس. وغَيث هو مُشعِلُ فِكرَة الزَّواج أيضًا في قلبِ إيميه المُتعَب والمُرتبِك أمامَ طابورِها الطّويل وهي عاجزَة عن الاختيار.

وَأقلعَ الحُبُّ بِهِما. ثمَّ أوصلَها غيث بعدَ العشاء لعندِ عمَّتِها وذَهَب. إفترَقا في الجَسَد من هُنا وشَرَعَ العقلُ يُفكِّرُ من هنا.. ويُفكِّرُ كثيرًا. ما شعرَ بهِ غَيث نحوَ إيميه لم يَشعرْ به نحوَ الأخريات. تِلكَ اللَّهفَةُ / الوَمْضَة في قلبِهِ عندَما سلَّمَتْ عليه بعدَ المُباراة.. كانتْ حَدَثًا جلَلاً بالمُقارنةِ معَ اشتِعالِ الجسَد معَ الأخريات فيما نغَماتُ القلبِ يابسَة. ثمَّ تواعدا.. تواصلا.. وكانا يَخرُجانِ دَائمًا معًا. وَصارَ جليًّا للجَميع تميُّزُهما كعاشقَين وزَوجَين عَتيدَين. واتفَّقا على إنهاءِ الدِّراسَة أوَّلا: هي الدِّيكورايشِن وهو التِّجارَة.

وهكذا مَرَّتِ الشُّهُورُ سُراعًا. وفي آخرِ السَّنةِ التَّاليَة حضرَ إلى بيتِ فارس الرَّاسِي رجُلانِ من دائِرَة المساحَة وبحوزتِهما خرائِطُ وأوراق. سَألا عنِ البَيتِ الخربِ العَتيق المُجاور لبنايتِهِم وحولَه تلكَ البُوْرَة المُهملَة منذ عقود. سألَ واحِدُهم سؤالاً:

– هل رأيتُم أحدًا جاءَ إلى هذا البَيت.. أو مَنْ سألَ عنه.. طوالَ إقامتِكم في هذِه البناية؟

وأجابَ فارس الرّاسي:

– لا يا سيِّدي الكريم. ثمَّ سألَ:

– لماذا؟ ما المُشكلة؟

وكانَ الجواب:

– مالكُ هذا العِقار ماتَ منذ عقود في أستراليا.. والوكيل أيضًا. وأوراقُه مُختَفيَة. ستَضَعُ الدَّولة يدَها على هذا العِقار، وربَّما سيتَحوَّل إلى موقفٍ للسيَّارات.

وعندَما عادَ غَيث إلى البَيت أخبَرَهُ أبوه عن البيت والبُورَة المُجاورة.. ووَقَعَ الخبَرُ عليه وقوعَ الصَّاعِقَة! كأنَّ جنًّا من عَبقَر صرخَ إليه.. أو وَحيًا من إلهٍ ما نزَّلَ عليهِ تنزيلاً لِمَشروعٍ فَذّ. سألَ غيث أباه:

– هل كنتَ تعرفُ يا أبي أنَّ هذا العِقار سائِب؟

– طبعًا لا. أجابَ فارس.

ومن تلكَ اللَّحظَة صارَ غيث في أوقاتِ الفراغِ والعُطَلِ يَجولُ ويسألُ ويُفتِّشُ عن العِقارات السَّائِبَة، ويتحَرَّى عنها في الدَّوَائِر العِقاريَّة. بل ربَّما أصبَحَ نبيًّا.. وسابقًا لزمَنِهِ بعقود.. ورَائدًا في فِكرَتِهِ الغريبَةِ هذه.. لِمَا سيَكونُ موضةً منتشِرَةً في المَرحلةِ اللاَّحقة.. موضة سرقةِ العِقاراتِ السَّائِبَة وبَيْعِها في صفقةٍ وَهميَّة.

وبعدَ حوالي سبعَة أشهُر وَجَدَ غيث قطعةَ أرضٍ سَائِبَة في بلدةِ "الغينِه"[٣] تُساوي مليونَ دولارًا.

*****

[٣] بلدة في سفح شماليّ مشرفٍ على مدينة جونيه.

الورقة الخامسة

تـُحبُّني أو تكرَهُني، كلاهُما مُفضَّل لدَيَّ:
أذا كنتَ تـُحبُّني.. فأنا دائِمًا في قلبِكَ،
وإذا كنتَ تكرَهُني.. فأنا أيضًا في عَقلِك.

وليم شكسبير

الغريبُ ضَعيفٌ..
مَهما حَاولَ أن يَكونَ قويًّا.

سيِّد قطب

أيَّ مَعنًى منَ المَعاني يُمكنُ أن يَتقمَّصَ كلمَةَ: الحَيَاة؟

هلِ الحَياةُ مثلاً تعني الحُرِّيَة؟!

أتُراها تَحقيقٌ لِلذَّات؟!

هلِ الحَيَاةُ هيَ السَّعَادَة؟!

أم انَّها رَدِيفٌ للمُعاناة؟

أو هي تَوَاترُ الاثنَيْنِ: الفَرَح والألَم.. ومُداورَةٌ بينَهُما؟

ولكنَّ السُّؤال هنا.. فيما لو كانتِ النَّقيضَين معًا.. هل هما مُنسَجمانِ أو مُتخاصِمان مُتصارعان؟ هلِ التَّناقضُ الظّاهريُّ هو الذي زكَّى شَقاءَ الإنسان في هذه الفانيَة؟ هل يُشكِّلُ الفرَحُ والألم وَجهَينِ لعُملةٍ واحِدةٍ.. أم انَّ واحِدَهما دَخيلٌ على مَلكوتِ الآخر؟ وهلِ الحَيَاةُ حقًّا سعيدَةٌ فيما لو كانتْ خاليةً منَ المُعاناة؟ أو هي بائِسَةٌ كئيبَة فيما لو كانت خاليةً منَ الفرَحِ والمسرَّات؟ لسنا هنا لنطرَحَ بَحثًا فلسفيًّا.. ولكن بالنِّسبَةِ إلى مَنْ خَبِروا الحَياةَ بأبعادِها "الأربَعَة"، أدركوا أنَّ جَوهرَ الحَياة في هذِهِ الثنائيَّةِ المتَّحِدَةِ اتِّحادًا أقنوميًّا سَرمَديًّا مُتجَسِّدًا في يوميَّاتِ الإنسان وسَعيِهِ الدّؤوب وراءَ لقمَةِ العيش. الحَياةُ دَمعَةٌ وابتِسَامَة.. بَشَاعَة وَجمال.. حِرمانٌ فَلَذَّةٌ.. فشَلٌ ثمَّ نَجَاح.. هزيمَةٌ وَيَليها انتِصَار. وفي أحيانٍ كثيرَةٍ تكونُ الدَّمعَةُ إسقاطًا للفرَح، وثمَّةَ وَمَضاتُ جَمالٍ في قلبِ البَشاعَة، وهناكَ لذَّةٌ كامِلَة في الحِرمان، ونَجَاحٌ ماردٌ أسيرٌ خائِب في قمقُمِ العَجْزِ والقُصور! ودائِمًا أبدًا.. لو سبقَتِ الدَّمعَةُ الابتِسامَةَ تكونُ الابتسَامَة أجمَلَ، والنَّجَاحُ أعظمَ لو سبقَهُ فشَل، والمُتعَةُ ألَذَّ بعدَ مَرحَلةِ الحِرمان. قالبُ الحَلوى فيه قليلٌ من المِلح، والطَّبيخُ المُملَّحُ فيه القليلُ منَ السُكَّر.. وهذا يَعني أنَّ كيمياءَ حَلاوَةِ الحَيَاةِ لا تَخلو منَ مُلوحَةِ التَّجَارب، وتَركيبَةَ مُلوحَةِ المُعاناة لا تخلو من سُكَّرِ الانفِرَاجات. وإذًا فالسَّعادةُ والألم هما جَسَدُ ورُوحُ الحَياة.. وتموتُ الحَيَاةُ جَسدًا بلا روح أو روحًا بلا جسَد. تمامًا كالضَّوءِ والحرارَة بالنِّسبَةِ إلى الشَّمْس.. فهي ميِّتةٌ لو فقدَتْ ضَوءَها ولا مَعنى لوجودِها لو خسِرَتْ حرَارَتَها. الحَيَاةُ بلا ألَمٍ مَهزلَةٌ تافهَة.. وبلا فرَح سَبْيٌ مُزمِن. والذي يشكو أنَّ حَيَاتَهُ شَقيَّة لا بَهجَةَ فيها.. لا زالَ مُراهقًا في فَهمِهِ الدُّنيا.. ومتى بلغَ النُّضوجَ سوف يُدركُ حتمًا تلكَ الحَقيقَة.

*****

لندن أيلول ٢٠١٦.

"غيث الرَّاسِي ضحيَّة ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥؟!"

تمتمَ المُحقِّق شَكيب مُدوِّر وراءَ السيِّد صَخر. ثمَّ تابعَ وسأل:

– هذا الفتى اليَتيم بطَلُ الدّراما التي ترويها لي يا صَخر.. هو ابنُ غيث الرَّاسِي الاقتِصَادِيّ المَعروف.. دونجوان ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥؟!

ولمْ يتروَّ ليسمَعَ الجَواب.. وتابعَ مُلِحًّا:

– ما اسمُ الفتى اليَتيم يا صَخر ما اسمُه؟ هل هناكَ ما يُثبتُ رَسميًّا ارتباطَهُ بغيث الرَّاسِي؟

فأجابَ صَخر سويدان بعدَ أن رشفَ رشفةً من قهوتِهِ، ومَجَّ مَجَّةً أخيرَةً منَ السِّيكارَة:

– قلتُ لكَ الاسم ليسَ هامًّا الآن. ولكنَّ الدَّليلَ الوَحيد الذي يُثبتُ أبوَّةَ غيث لهذا الفتى اليَتيم هو شَهادَةُ الأمِّ.. والأمّ فقط.

– مَنْ.. تقصُدُ زَوْجَةَ غيث الرَّاسِي؟! سألَ المُحقق مُستغربًا.

– لا.. بالتَّأكيد لا. أجابَ صَخر.

– إحدَى عَشيقاتِهِ؟

– قبلَ أن يَتزَوَّج.. ممكن.

كانتْ أسئِلَةُ المُحقِّقِ خارجةً عن الاحترافِ والمِهَنيَّة.. بل هيَ أشبه باستفهاماتٍ بريئَةٍ عمياء تُحرِّكُها سَليقةُ النَّزوَةِ الفُضُوليَّة لا أكثر. قالَ صَخر سويدان:

– جئتُكَ لكي أقولَ لكَ كلَّ شَيْء. ولكنَّكَ لنْ تفهَمَ غايَتي إذا قلتُ لكَ الخاتِمَة قبلَ المُقدِّمَة. أنهيتُ قهوَتي هذه.. وأعتَقِدُ أنَّنا نَحتاجُ لفُنْجانٍ آخر.

فأشارَ المُحَقِّقُ بيَدِهِ إلى النَّادلَ وحَضَرَ هذا الأخير.. فطلبَ منه فُنجانَين آخرَين منَ القهوَة. وقالَ بصَوتٍ خافت:

– في علاقةِ فتاكَ اليَتيم بغَيث الرَّاسي، وكانَ هذا مُفاجئًا لي حقًّا، بدأنا بالاقتراب من "الجَريْمَة" الحَدَث. تابعْ يا صَخر تابع.

وأشعَلَ صَخر سويدان سيكارةً أخرَى، ثمَّ عادَ يروي حِكايتَهُ للمُحَقِّق شَكيب مُدَوَّر:

– ذاتَ يَوْم.. جاءَ إلى مَيتَمِ راهباتِ العازَاريَّة رَجُلٌ طيِّب.. ولن أقولَ لكَ ما اسمُهُ وما هيَ مِهنتُهُ الآن.. وأرادَ هذا أنْ يَرَى الأولادَ ليَختارَ واحِدًا يَتَبنَّاه. فرَحَّبَتِ المُديرَةُ بهِ، وَسَارا بجَولةٍ في أرجاءِ المَيتَم. وَسَافرَ ناظراهُ في وُجُوهِ وعيونِ الصِّبيانِ اللاَّهينَ في الباحَةِ من أعمارٍ شتَّى. وعندَما جلسَا إلى الطّاولةِ في غرفةِ الطَّعام ليشربَا القهوَةَ.. رَأى الفتى اليَتيْمَ مَوضُوعَ حَديثِنا داخِلاً معَ رفاقِه ليتناولوا وَجبَةَ الغَدَاء.. فارتاحَ له.. بل أحَبَّهُ منذ النَّظرَةِ الأولى! الفتى اليَتيم ديناميكيٌّ لطيفٌ وَذَكِيّ، والشَّغَفُ البارقُ في مُقلتَيه كأنَّه مغناطيس جذّاب. كاريزما مؤثِّرَة. قالَ الرَّجُلُ للمُديرَة:

– لقد أحبَبْتُ هذا الصَّبيَّ "الوَرِش"[٤]. حَدِّثيني عنهُ.. واضح أنَّه منَ الناحيَة الجَسَديَّة لا يشكو من أيِّ شيء.

– بلى.. صِحَّتُه مُمتازَة! قالت المُديرَة ثمَّ أضافت سؤالاً:

– سيعيشُ مَعَكَ في البَيت حتمًا؟

وأجابَها الرَّجُل بالإيجاب. وسألتِ المُديرَةُ ثانيةً:

– وَأنتَ متزوِّج؟ وأجابَها:

– بلى. وسألتِ المُديرَة أيضًا:

– ألن تأتِيَ زَوجتُكَ لِتشاركَكَ في الاختيار؟ رأيُ الزَّوجَةِ هامّ في هذه المَسألة.

– بلى.. ستأتي معي في المَرَّةِ القادمَة. وصَمَتَ لثوانٍ، ثمَّ قال:

– في الحَقيقَة زوجَتي ليسَتْ متحمِّسَة كثيرًا لفكرةِ التبنِّي هذه. ولكنّي أعتقِدُ أنَّها ستُذعِنُ في نهايةِ المَطاف. فقالتِ المُديرَة للرَّجُل:

– حادِثِ الصَّبيَّ.. فإذا لمْ يُحبَّكَ لنْ يَذهبَ معَكَ. وأنا لا أرغِمُهُ على شَيْء.

كانَ واضِحًا أنَّ الرَّجُلَ الطيِّبَ لا يُريدُ أن يتبنَّى طِفلاً.. صبيًّا رَضيعًا مثلاً.. زَوْجَتُهُ لم تكنْ تُريدُ التَّبَنِّي، لم يُرْزَقا أولادًا طوالَ سَنَواتِ زواجِهِما، وهوَ المُبادرُ بالفكرَةِ أوَّلاً ثمَّ

---

[٤] الشقيّ.

عادَتْ زَوْجَتُهُ بَعدَ ذلكَ ولحِقَتْ بهِ. بيدَ أنَّ الفتى اليَتيمَ لم يَقتَنع بمُغادَرَةِ الميتَم والذَّهابِ معَ والديهِ الجَدِيدَين إلاَّ بَعدَ شَهرٍ منَ الزَّمَان. والمُحاولاتُ الحَثيثَةُ من المُديرَة كانَتْ توابلَ لإنضاجِ الطَّبخَةِ في دِماغِ الولَد. فقد جاءَتْ إليه ذاتَ مَساءٍ، وأثناءَ تناولِ وَجبَةِ العِشاء، وجلسَت معه إلى طاولةٍ واحِدَة، وقالتْ له:

– هذا حُلم.. ألا تَرَى؟! حلُم بالنِّسبَةِ إلى أيِّ واحدٍ منكم هنا. وحُلمُكَ أنتَ صارَ حقيقة!!

فأجابَها الصَّبِيُّ وعَيناهُ تغرورقان:

– ولكنَّ والِدي هو غيث الرَّاسِي!

فسألته مُستَغربةً:

– مَن غيث الرَّاسِي؟! أنا لمْ اسمَعْ بهذا الاسم!! فأجابَها وهو يَمسَحُ مآقيَه:

– وفاء قالت لي هذا قبلَ أن تركَتني وذهَبَتْ إلى السَّماء.. وقد كتبَتْ لي هذا الاسم على ورَقةِ غلافِ الإنجيل الذي أعطتْنِي إيَّاه.

فقالتِ المُديرَةُ عندئذٍ بهُدُوء.. بعدَ أن صَمَتَت لثوانٍ:

– حتى ولو كانَ غيث الرَّاسِي هذا أباك فهو لا يَهْتمُّ لأمرِكَ.. أينَ هوَ؟ إنَّهُ لا يسألُ عنك.. وهو بالتّأكيد لا يُريدُك. وهناكَ بالمُقابل رَجُلٌ طيِّبٌ أحبَّكَ ويُريدُ أن يَعتنيَ بكَ ويصيرَ أباك. وسوفَ يَهتمُّ بأمورِك كما نحن وأكثر.. وسَيَكونُ لكَ أفضلَ بكثير من غَيثِكَ هذا.

وأخَذَتْهُ بينَ ذِراعَيْها وكفكفَتْ دُموعَه.

كانتْ كلمَاتُ المُديرَةِ قويَّةً مُقنِعَةً، لم يَحرِ الصَّبيُّ إزاءَها جوابًا. وتسلَّلَتِ الطّمأنينةُ إلى قلبِهِ معَ دِفءِ النَّسماتِ التي حرَّكَها شِراعُ الأمَلِ المَنشود.. خصوصًا بعدَ حادثةِ دوري التي جعَلَتْهُ ينظرُ إلى "العالمِ الخارجيّ" كأنَّهُ تِيْهٌ أجرَدُ لا أنسَ فيه ولا جنّ بالمُقارنة معَ نَعيمِ المَيْتَم. ثمَّ عادَ وَجاءَ الرَّجُلُ الطيِّبُ مرَّةً أخرى ومعَهُ زَوجتُهُ المتأنِّقَة، والتي تُشبهُ في مَظهرِها وفاءَ في وَجهٍ منَ الوُجوه، وأحضرَا له بعضَ الأطعِمَةِ والحَلاوينَ وتحادثا

معَه طويلاً، وأمضَيا برفقتِهِ النَّهارَ كلَّه حتى أنِسَتْ رُوْحُهُ بهما، وأذعَنَ لحَظِّهِ وما كتبَت لهُ الأقدار من نصيبٍ في هذه الحَياة. بيدَ أنَّ غيث الرَّاسِي سيبقى صورةً هُيوليَّةً تُلوِّنُ وتُزَخرِفُ ملامِحَها فُرشاةُ الرَّجَاءِ المُستحيل، وتَعويذةً.. أو بالحَريّ ذَخيرَةً منثورَةً من ماضٍ مُدَمَّر.. مَدفونةً في زِقِّ خَيالِهِ ليَستحضِرَها في مَوعِدِها، ويسألَها عن مَحَلِّها منَ الإعراب في صَرْفِ مُعاناتِهِ ونَحْوِها.

كانَ ذلِكَ اليَوم مُشمِسًا عندمَا غادَرَ المَيْتَم ورَحَل إلى عالمِهِ الجَديد.. إلى عائلتِهِ الجَديدَة. دَفنَ الصبَيُّ يَوميَّاتِ "لوجِسْتيَّاتِهِ" في حَقيبَتَين واحِدَة كبيرَة وأخرى صَغيرَة.. ثمَّ خرَجَ يُودِّعُ رفاقَهُ الأولادَ واحِدًا واحِدًا مُنتَقِلاً من غرفةٍ إلى أخرَى.. خصوصًا صديقَه دوري. وعندَما دَنا هو ووالِدُه الجديد الرَّجُلُ الطيِّب من البَوَّابةِ الرَّئيسيَّة يَهمَّانِ بالخروج ومغادَرَةِ المَيتَم.. وَثَبَ الصِّبيانُ إليهما من فُتُحَاتِ البناءِ.. كأنَّهم زَوَاحِفُ صَغيرَةٌ خَرَجَتْ من جُحُورِها في يَومٍ رَبيعيٍّ صَاحٍ.. وعانقوه طويلاً.. بعضُهم باكٍ وبعضٌ ضاحك.. وقالوا له بصَوتٍ عالٍ:

– لا تنسَنا يا... عُدْ إلينا وزُرْنا متى سنَحَتْ لكَ الفرصَة.. ستَبقى دائِمًا بَينَنا ولن ننساكَ ما حَيينا.

فقاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر:

– لا زلتَ تتَحامى ذِكرَ الأسماء.. معَ انكَ ستقولُها لي في النِّهاية.

فهَزَّ صَخر رأسَه موافِقًا على ما قالَ المُحقِّق شَكيب، وتابع:

وهكذا أقلَعَتِ المَرْحَلَةُ الجَدِيدَةُ من حيَاةِ هذا الصَّبيِّ اليَتيم.. إنَّها المُراهقةُ الأولى. لقد عامَلَهُ والدُه الجَديد بمَثابةِ ابن، لقد أحبَّهُ وتأثَّر بهِ أيضًا! أعطاهُ اسمَهُ وسَجَّلَهُ في دائرَةِ النُّفوس ابنًا له، وفرَّغَ له غرفةً في منزلِهِ المُنفرِدِ الفَسيح في ظاهرِ المحلَّة، ثمَّ أدخلَهُ أخيرًا إلى إحدَى المَدارسِ القريبَةِ ليُتابعَ تَحصيلَهُ العِلميّ. وراقَ للزَّوجَةِ كثيرًا أنْ تكونَ طقوسُ المَيتَم قد صَبَّتْ شَخصيَّةَ الصَّبيِّ في قوالبِ الانضباطِيَّاتِ واحترامِ المَواقيت.. مَعطوفةٍ على درجةٍ عاليَة من التَّرتيبِ "ليَوميَّاتِهِ اللّوجِستيَّة". ومعَ أنَّ والدَيهِ الجَديدَين طلبا منه أنْ يناديَهُما بـــ "أبي" و"أمّي"، وهذا ما اعتادَهُ بسُرعَة! إلاَّ انه لم يَشعُرْ بارتياحٍ

نفسيٍّ وسعادَةٍ بغير دُخولِهِ إلى المَدرَسَة. فهناكَ وَجَدَ لهُ "مَيْتَمًا" آخرَ! قانونًا.. أوامِرَ.. طاعَةً.. نِظامًا.. وأولادًا مِنْ كلِّ الأعمار وألعابًا ونشاطاتٍ شَتّى. فشكَّلَتِ المَدرسَةُ في زَمَنٍ قليلٍ أُسرتَهُ الحَقيقيَّة التي شَغَفَهُ هَوَاها. في البيت كانَ يشعرُ بمَحبَّةٍ واهتمامٍ يَنقصُهما شيءٌ يَجهلُ ما هو.. كأنَّ مَحَبَّتَهُما، معَ كونِها باذلةً، إن هيَ إلاَّ فِعْلٌ إراديٌّ خالٍ منَ التَّتبيلةِ المَشَاعريَّةِ التي تجعلُ البَذلَ ذا نَكهَةٍ استِثنائيَّة. وأمّا في المَدرَسَةِ فكانَ الفتى يَشعُرُ بحُبٍّ صادقٍ قويٍّ من قِبَلِ رفاقِهِ التَّلامذَة.. مثل سَمَكةٍ في الماء! وهكذا انتهى العامُ الأوَّلُ ناجحًا مُرتَقِيًا. وكانَ له فرصَةٌ جَميلةٌ في الصَّيفِ أن يَقضِيَ أسبوعَين في مُخيَّمٍ للكشَّافَة في تِلالِ بلدةِ فَقرَا السَّاحِرَة.

إلى أن جاءَ ذلكَ اليَومُ المَشؤُوم!

لم يَكنِ الفتى المُراهِقُ ليَفهَمَ في لُعَبِ الكِبار، ومناوَرَاتِهم، ولا حتى غَدرِهِمْ وخياناتِهم. لم يُدركْ في البدايَة أنَّ رمالاً مُتحَرِّكَة تَحيقُ بهذا البَيت. وأراحَهُ هو الآخر أن يرى تقاطُعًا ما وَشَبَهًا بينَ وفاء وربَّةِ هذا البيت والدَتِهِ الجَديدَة.. الاثنتان تتبَرَّجان، الاثنتان تَتعَطَّران، الاثنَتان مُتصَابيتان، والاثنَتان جَميلتان! وعادةً في مرحلةِ المُراهقة الأولى تَتَفَتَّقُ شَرنَقَةُ الوَعيِ على وجودِ الجنس في حَيَاةِ الإنسان.. ولو انَّهُ وَعيٌ ضَبَابيٌّ.. هيُوليّ! إلاَّ انه يبقى مُتخلِّفًا عن مواكبَةِ رُموزِ اللُّغَةِ الغَزَليَّة، وذلكَ التَّنادي الصَّامِت الذي يعبُرُ، كأنَّه الكهرُباء غيرُ مَرئيٍّ، في تَراسُلاتِ العيُونِ والتَّلميحاتِ ونَبرَةِ الصَّوتِ وحركَاتِ الرَّأسِ وَبعض الأطراف بينَ الأنثى والذَّكر الآدَميَّيْن. لاحظَ الفتى أنَّ هناكَ بُخلاً وَشِحًّا في المُودَّةِ بينَ ذَويهِ الجَديدَين، مُفرداتُ المَحبَّةِ والاطراء والتَّشجيع واللُّطف شبهُ مَعدومَة، وعَينا الرَّجُلِ الطيِّب تأبيان أن تلفُظا الكآبَةَ التي تَتلوَّنانِ بها! في حين أنَّ زَوجتَهُ تتَجلَّى في أبهَى عَبَآتِ سِحْرِها وتألُّقِها وجاذبيَّتِها عندَ مَقدَمِ ذلكَ الرَّجُل المتأنِّق في سيَّارَتِهِ الجاغوار.. السِّيكار بيُسراهُ والسُّبحَةُ بيُمناه، ليسَت سُبحَةَ العِبادَة بل سُبحَة الدّونجوانيَّة، وعِطرُهُ الرَّجوليُّ الفرنسيّ (آزارو) سابحٌ حواليه كأنَّهُ هالةٌ منَ القداسَةِ تحفظُ عِصمتَهُ الدَّائمَة منَ التلوُّث! يركنُ السيَّارَة وراءَ الجِدارِ تحتَ الشَّجَرَة، مُقنعًا نفسَه أنَّهُ هكذا توارى عن فُضوليَّةِ الأعيُنِ والألسُن.. هاتَين الحاسَّتين (النَّظر والسَّمَع) اللَّتَين لا يرويهِما غيرُ الحِكاياتِ الطَّريفةِ المُشوِّقَة، ولو على حِسابِ دَمارِ حياةِ أبطالِها. كانَ

والدا الفتى الحَديثَان يُظهران الحَفاوَةَ بالوافِدِ الجَريءِ الثَّريّ ويُحسنان الضّيافة جيِّدًا.. بحيثُ يوفِّرانِ له أفضَلَ وَقتِ لذَّةٍ وكَيْفٍ مُمكن. ويبقى هذا "الضَيَّفُ الثّقيل" ساهرًا عندَهما حتى منتصَفِ اللَّيل.. يتسامرون وهم يشاهدون التِّلفاز ويشربون القهوَة وأحيانًا يتناولونَ المازَةَ معَ كأس ويسكي أو عَرَق. لم يكن الصَّبيُّ يبقى ساهرًا معَهم.. ولكنَّ السَّمَرَ والضِّحكاتِ المُدوِّيَة أشباحٌ مُؤرقَة تخترقُ جدارَ غُرفتِهِ لتسلبَهُ هدوءَ نَومتِهِ.

وفي تِلكَ اللَّيلة.. عندمَا سلَّمَ عَينَيهِ لأناملِ الرُّقادِ تُطبِقُهما بهُدوء، وكانت سَهرةُ الثَّلاثةِ في البَهوِ صاخبَةً، ثمَّ بدأ ضَجيجُ المَرَحِ يَخفتُ شَيَئًا فشيئًا، شعرَ الولَدُ المُتبَنّى كأنَّ الزّائرَ المتأنِّقَ قد غادرَ البيت وانتهَى كلُّ شَيْء، والوقتُ وَقتُ المُضيِّ إلى العُمق. فجأةً! يعلو صَخبٌ ذو نكهَةٍ غيرِها أثناءَ وجودِ الضَّيف.. جدَلٌ أو شِجارٌ بَينَ الزَّوج والزَّوجَة.. والتهَبَ الكلامُ واشتَعَل.. وفضَحَ المَستور! صاحَ الزَّوْجُ أوَّلاً بزَوجَتِهِ:

– متى تنتهي هذِهِ المَهزلَةَ يا دَلال.. متى؟ وأجابتْ دلال من فورِها:

– ألم نتَّفِقْ على هذا؟ أتُراكَ نسيت؟ لماذا تعودُ إلى الموضوعِ نفسِهِ من وقتٍ لآخَر؟!

فتَزدادُ نبرَةُ صوتِهِ غضبًا:

– أنا رَجُلُ هذا البَيت يا حُرمَه.. أينَ كرامَتي.. شَرَفي.. سُمْعَتي؟! مَرَّغتِ رأسِي في الوَحل.

فأجَابتْهُ وقد ارتفَعَ صَوتُها بالصُّراخ غيرَ عابئَةٍ بالولَدِ النّائِمِ في الغرفة:

– لا تتَذَمَّر.. أنتَ لستَ رَجُلاً يا هذا.. وأنا امرأة ولي احتياجاتي.. لا تُحمِّلني وَحدي المَسؤُوليَّة. وغسَّان الجُردي كريمٌ معنا كثيرًا، وأنتَ أدرى بأنَّنا مَديونانِ لهُ بالكثير، وهو أيضًا مصدرُ هذه البَحبوحَة التي نعيشُ فيها الآن. أم انَّ يَقظةَ الرَّجولةِ المِزاجيَّة عندكَ أنستَكَ كلَّ هذا.

وَخرَجَ الرَّجُلُ عن طَورِهِ وصاحَ في وَجهِها:

- كفى يا ابنة "هيك وهيك".. كفى! هل هذا بَيت أم ماخور!! لا شرَفَ عندكِ ولا وجدانَ ولا ضَمير. ألا تخشَينَ ربَّنا.. لو تَسمَعينَ قِصتَّنا على ألسِنَةِ النّاس؟ الله أعلمُ ماذا تحيكُ مُخيِّلتُهم عنكِ وعن غسّان الجُردي. إنَّهُ لا يأتي لكي يُحادِثَني في السِّياسَةِ او الاقتِصاد.. فأنا لستُ مُستشارَه السِّيَاسيَّ والاقتِصاديّ.. أنا هذا الموظَّفُ الخادم البَسيط عندَه.. بل أنا مَمسَحَتُهُ.. أنا نكِرَه في نظرِهِ.. حشَرَة.. وفي نظرِكِ أنتِ أيضًا. ستندَمينَ يا دلال على كلِّ هذا، أقسِمُ بأنَّكِ ستَندَمين.

فقالت له.. كأنَّ الاهتمامَ استيقظَ فجأةً في دِماغِها:

- أخفِضْ صوتَكَ.. الصَّبيُّ نائِم!

فقالَ لها بصَوتٍ خافت:

- لقد وَعَدْتِني أن تتوَقَّفي من أجل الولَد.. ابنِنا الجَديد لا يجوز أن نربِّيَ الصَّبيّ وسطَ هذه القذارَة.. المَيتَم خَيرٌ له من حياتِنا البائِسَةِ هذه.

وهكذا هي وَتيرَةُ الشِّجاراتِ بَينَ الزَّوْجَين منذ أشهُر قليلة. بيدَ أنَّ الشِّجارَ الأخير كانَ الأعنف من حيث الصِّياح بينهما. فنهضَ اليَتيمُ واقترَبَ من الباب يسترقُ السَّمَع، وسمِعَ الجدَلَ كلَّه بينَ الزَّوجَين. لقد كانَ الرَّجُلُ يتوقَّع أن ينتهيَ ما يَحدثُ بينَ زَوجتِهِ وغَسَّان الجُردي في بيتِهِ قريبًا.. بحسَبِ الاتِّفاق بينَهما. وربَّما أرادَ الرَّجلُ هذا الولَدَ لكي يُنهيَ المأساة! بيدَ أنَّ إلحاحات الزَّائر المُتأنِّق لم تحسِبْ حِسَابَ ضَيِّفٍ صَغيرٍ جَديد وزائرٍ غريمٍ له دائمٍ في البَيت. لقد رأى الزّائِرُ الثَّريُّ الولَدَ معَ سائقِهِ ولم يكترِثْ في البدايَة. كانَ اللّقاءُ بينَ السِّياسِيِّ العاشِق وزَوجةِ سَائِقِهِ قبلَ شهورٍ في قبوٍ من أقبِيَةِ لذَّتِهِ السِّرِّيَّة، ولكنَّ وقاحتَهُ تجاوزت الخطوطَ والموانعَ والسِّياجاتِ كلَّها.. فتَجاسَرَ ودخلَ منزل سائِقِهِ.. وسائِقُهُ بدَورِه يُخلي له السَّاحَةَ ليُضيفَ "مأثرَةً وَطنيَّةً" جديدَةً إلى مآثرِهِ الكثيرَةِ فوقَ مَضجَعِ زَوجةِ السَّائق المَصون.

وذاتَ يَوم.. لم يَستطِعِ الرَّجُلُ الطيِّبُ أخذَ مُتبنَّاه في نُزهةٍ خارجَ المنزل، كما دائِمًا، فقالَ له وكانَ وَجهُهُ كمِدًا مُكفَهِرًّا:

– إصعَدْ هذه الليلة ونَمْ على السَّطح.. أطِعني يا ابني. أنا ذاهبٌ لبَعضِ الوَقت ومتى عُدتُ أناديك. فأذعنَ الولَدُ.. ولكنَّه في هذه المرَّة أرادَ أن يكتشفَ سِرَّ هذه الخلواتِ الغامضَة بينَ السِّياسِيِّ وزَوجةِ السَّائق، معَ أنَّ حَدسَهُ الفِطريَّ أنبَأهُ بالحَقيقَة. حملَ فرشتَهُ وصعَدَ إلى السَّطح متظاهرًا بالخُضوع.. ثمَّ راحَ من على السَّطحِ يُراقبُ الدَّرْبَ منَ مَفرقِ محطَّةِ البنزين حتى اختفائها بينَ الدَّوحاتِ الوارفة ثمَّ ظهورِها ثانية بينَ الأبنيَةِ النّموذَجيَّةِ حتى مَدخلِ البيت. وحوالي السّاعة التّاسِعَة رأى مِصباحَي سيّارةٍ مُقبلَين.. ولم يتأكّد أنَّها الجاغوار إلاّ بخروجها من بينِ الدَّوحات الكبيرَة. ورأى السِّياسيَّ المُتأنِّقَ غسّان الجُردي يَركنُ سيَّارتَه تحتَ الشَّجرَة وراءَ الجِدار العَتيق، فلا يراها العابرون على الطريقِ الفوقِيّ المُحاذي للحَديقة. الأدواتُ نفسُها.. السّيكارُ والسُّبحَةُ والعِطر! يصعد الدَّرجاتِ الخمس ويقرعُ الباب وتفتحُ له دلال. وقبَعَ الولدُ في مكانِهِ زُهاءَ ساعةٍ منَ الزَّمان.. وعادَ ثانيةً وراقبَ المَدخلَ من على السَّطح.. وتأكَّدَ من أنَّ أباه لم يأتِ بعدُ.. فهمَسَ له الشّيطان أن ينزلَ ليُشاهدَ بَعضًا من أحداثِ هذه الدّراما المُزمنة التي يعيشُها الرَّجُلُ الطيِّبُ الذي أحبَّهُ وأعطاهُ اسمَه. نزلَ من السَّطح على رؤوسِ أصابعِ رجليه. عرفَ انَّهُ لا يستطيع أن يدخلَ منَ البابِ الرَّئيسيِّ في بَيْتِ الدَّرَج. فدارَ حولَ البيتَ وقفزَ إلى شُرفةِ المَطبَخ المَسقوفةِ بالأغصانِ الوارفة.. وسَحَبَ زُجاجَ البابِ وصَارَ داخِلَ البَيت! سَمِعَ جَلَبَةً في غرفةِ النَّوم.. فاقترَبَ في المَمشى أكثر فأكثر فسَمِعَ بوُضُوحِ صُراخَاتِ اللذَّةِ المُلتَهِبَة.. خُوارَ الرُّجولةِ مَتداخلاً بالأنينِ الأنثويّ في انسِجامٍ تامّ.. إنَّهُ تداخلُ وتوزيعُ الأصواتِ في أوركسترا الجنس. أدركَ الولدُ عندَها أنَّ هذا البيتَ مُضطرب والزَّوجة تخونُ زَوجَها بحُريَّةٍ كاملة. وعندما كانَ يثبُ من على الشُّرفةِ ليعودَ إلى السَّطح.. وَصلَتْ سيّارةُ أبيهِ ومصابيحُها العاليَة تضربُهُ وهو يقفزُ كأنَّهُ لِصّ. وقفَ مكانَهُ خارجَ الشُّرفة.. واقتربَ الرَّجُل وأماراتُ الغَضَبِ في عَينَيه، وسأله:

– أينَ كنتَ يا ولَد؟ ألم تكن نائمًا على السَّطح كما قلتُ لك؟

فلم ينبُسِ الفتى ببنتِ شَفَة. فصَاحَ بهِ:

– قل لي ماذا كنتَ تفعل هنا.. ماذا رأيت؟! تكلَّمْ.

فأجابَ الفتى مُرتبكًا:

– صدِّقني يا أبي.. لم أرَ شيئًا.. كنتُ عطشانَ فنزلتُ لأشربَ قليلاً من الماء.

ولكنَّ الصَّبِيَّ أدركَ أنَّ صراعَ هذين الزَّوجَين لن يُعفيَهُ.. أو يَحميَه من تشظِّياتٍ مؤذيَةٍ مُحتمَلَة.. فعزَمَ على الرَّحيل.

فقالَ المُحقِّقُ شَكيب مُدَوَّر عندئذٍ لصَخر:

– الآن بدأتْ حكايتُكَ تأخذُني إلى حيث تُريدُني أنت.

*****

الورقة السّادسة

ليسَتِ الخِبْرَةُ ما يَحدُثُ لكَ،
وإنـَّما مَا تفعلـُهُ بما يَحدُثُ لك.
ألدوس هكسلي

الضَّربَة لا تـُرْعِب..
ما يُرْعِبُ هو انتِظارُها.
ألفريد هيتشكوك

سَكبَ المُحقِّقُ شَكيب مْدَوَّر لنفسِهِ كأسًا منَ الويسكي ووَضعَ فيه قِطعتَي ثلج، ثمَّ خرَجَ إلى الشُّرفةِ المُطلَّة على مَدينةِ لندن المُتراميَة الأطراف. على ضِفَّتَي التّايمز أبنيَةٌ تعودُ لقرون، وكلَّما ابتعَدتَ عنه يُصبحُ البناءُ عَصريًّا حَديثًا، تنبَثِقُ بينَ الفينَةِ والأخرى شواهقُ مُكعَّبَةٌ ومُستطيلةٌ سابِحَةٌ في الفَضاء، تَعكِسُ السَّماءُ سُرياليَّاتِ ضَبابِها وشُحوبِها على جُدرانِها الخارجيَّةِ المُدفوفَةِ بالزُّجاجِ الأسوَدِ حينًا والفِضِّيِّ أحيانًا. وأمَّا في اللَّيل.. فهيَ أسرابٌ من حَشَراتٍ عِملاقةٍ مُضيئَة! أشعَلَ المُحقِّقُ سيكارَه وراحَ ينفُثُ المَجَّةَ في الهَوَاء. كانتِ الأفكارُ كواسِرَ تَحوِّمُ حولَ حِكايَةِ صَخر سويدان، التي كانَ يلتَهِمُها بمِسمَعَينِ نَهِمَينِ واهتِمامٍ فضوليّ، بل يكادُ يكونُ صبيانيًّا، حَوَالَي ساعَةٍ ونصف السّاعة في ذلكَ المَقهى PRUFROCK Coffee المشرفِ على النَّهرِ الهادئ هدوءَ أنسَامِ أيلول. وراحَ يُحلِّلُ ويَستنتِجُ ويَربطُ ويَفصلُ بينَ ما كانَ بحَوزتِهِ من معلوماتٍ عن واقِعَةِ ١٩ تشرين

الأوّل ٢٠١٥ وما استجَدَّ لديهِ بعدَ سَرديَّاتِ صَخر المُشَوِّقَة، والتي بدأتْ شَبيهةً بسَماءِ لندن وانتَهَتْ عندَ قابِ قوسَين أو أدنى منَ مَلحَمَةِ الحُبِّ المُنتَحِر. ما كانَ بحَوزَةِ الرَّجُلِ جَريمَةٌ مؤلَّفَة من جُثَّتَين: رَجُلٍ وامرأةٍ عاشِقَين، وبعضُ الاستِفهامَاتِ الغامضَة حولَ زمَانِ حدُوْثِ وفاةِ كلٍّ منهُما! وشُبُهاتٌ لَجوجةٌ حوْلَ إقحامِ كاميرا المُراقبَة لصَخر سويدان في القضيَّة، فجَعَلَتْهُ في طابورِ شَخصيَّاتِها اليَوميَّة. ثمَّ ذلكَ التَدَخُّلُ السِّياسيِّ الحازم من جانبِ ذَوي غيث الرَّاسِي ومن جانبِ غسَّان الجُردي أيضًا.. السِّياسِيِّ الذي ورَدَ اسمُهُ في خَبَريَّاتِ المَقهى المُمتِعَة.. حيثُ حافظَ المُحقِّقُ شَكيب على تمثيلِ دَور تَجَاهُل العارف. ولكنَّهُ في سَريرَتِهِ أدركَ بسُهولةٍ أنَّ الحَديثَ يدورُ عن السِّياسِيِّ غَسَّان الجُردي وسَائِقِهِ، والسّائِقُ هو مُنير سويدان والدُ صَخر سويدان. ولكنَّ للسَّائِقِ مُنير ولَدًا واحِدًا هو صَخر، ولا بنات! فتكونُ النَّتيجَةُ الأولى عندئذٍ، أنَّ صَخرًا هو نفسُه الوَلَدُ اليَتيمُ بطَلُ القصَّةِ التي يرويها بنفسِهِ لشَكيب مْدَوَّر، مَعقولةً وحَتميَّة. صَخر ولَدٌ يَتيمٌ في مَيتَم الرَّاهباتِ العازاريَّة.. ثمَّ جاءَ مُنير سويدان سائِق غسَّان الجُردي وتبنَّاه لأنَّهُ لم يُرْزَقْ بَنينا. والنّاتِجُ الثَّاني الأكثرُ دَهشَةً وحُضورًا من سابقِهِ، والذي راحَتْ صقورُ أفكارِ المُحقِّقِ تقتاتُ منه بتأنٍّ.. هو مَدَى صِحَّةِ أبوَّةِ غيث الرَّاسِي دونجوان واقِعَةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ للوَلَدِ اليَتيم بَطلِ الحِكايَة! فلو صَدَقَتِ المَقولة.. فهذا يَعني أنَّ صَخر هو ابن غيث الرَّاسي والِدِه الحَقيقيّ. وهذا ينقلُنا إلى بَيتِ القصيد جَريْمَةِ انتِحارِ العَاشِقَين، ليَنتفِضَ كالسِّحرِ رابطٌ.. وربَّما تَحَوَّلَ إلى دافِعٍ قويٍّ مُباشَر يَشْكُلُ طرَفَي الجَريمَة: مُنفِّذَها صَخر سويدان وَضَحيَّتَها الأولى غيث الرَّاسي.. فيما تبقَى الضَحيَّةُ الثّانيَة العَشيقَةُ غريبَةً على المَشهَد! وتَطيرُ ظنونُ المُحقِّقِ وتَخميناتُهُ إلى والِدَةِ صَخر الحَقيقيَّة.. أتُرَاها العَشيقَةُ المُحتمَلة.. وقتيلة الهوَى الثَّانيَة في تِلكَ الواقعَةِ الغامِضَة؟!

رَمَى شَكيب مْدَوَّر قامتَهُ المَديدَة فوقَ الكَنبَةِ على الشُّرفةِ الفَسيحَة، وحَدَّثَ نَفسَهُ أيضًا: "لقد صَدَقَتْ توقُّعاتي.. تَسجيلُ الكاميرا أوّلاً والآن العلاقة المباشَرَة بالضَّحيَّة، وغدًا مَسَاءً في القِسمِ الثَّاني من هذهِ الحِكايَة، الدَّافِعُ إلى القَتل. إنَّها حقًّا قَضيَّةٌ مُثيرَة".

وفي اليَومِ التَّالي مَساءً، قُرعَ جرَسُ بابِ غُرفةِ المُحقِّق في الفندق، فتَحَ البابَ وكانَ صَخر، كما وعدَه هذا الأخيرُ أن يَجيءَ عندَ السَّادسةِ والنِّصف. قال المُحقِّق:

– أنت دَقيقٌ في مواعيدِك يا صخر. ومُصِرٌّ أيضًا أن تُنهيَ لي قصتَّك بكامِلِها من ألِفِها حتى يائِها. أليسَ كذلك؟

– وهل يظهرُ عليَّ غيرُ ذلِك سيِّد شَكيب؟ أجابَ صَخر بسُؤال.

– إسمَع.. سأطلبُ بعضَ المازَة، وأشَغِّلُ النّظامَ الصَّوتيَّ وموسيقًى هادئَة.

– لا بأس.

– خذْ راحتَكَ يا صَخر أنتَ في بَيتِك.. والمَنظرُ ساحِرٌ هنا على الشُّرفَة. قالَ المُحقِّق.

ثمَّ خرَجَ صخر إلى تلكَ الشُّرفة ورأى مدينةَ لندن في اللَّيل، والأبنيَةَ المُستطيلةَ المُضيئةَ في أُمسيةٍ مُنعِشَة من أخرياتِ الصَّيفِ الإنكليزيِّ اللَّطيف. واتَّصلَ شَكيب مدوَّرَ من هاتِفِ غرفتِهِ بخِدمةِ المَطبَخ وطلبَ مازةً مشَكَّلةً لشَخصَين، وعادَ إلى صَخر وجلسَ مقابلَه وقالَ:

– تفَضَّل.. أنا حاضر لسَماعِ القِسْمِ الثاني منَ الحِكايَة. وأنا أشهَدُ لمَوهبتِكَ في القَصَص. أنتَ قاصٌّ بارع حقًّا يا صَخر.

فقالَ صَخر وهو يسحَبُ سيكارَتَه ويُشعِلُها:

– ليسَ في نيَّتي أن أصبحَ روائيًّا.. أنا فقط أدقِّقُ في تفاصيلَ مُعيَّنَة.. ولا بُدَّ منها.. لكي أصِلَ بكَ إلى برِّ الأمان، ليسَ إلاّ.

وشَرَعَ صَخر سويدان يتَكلَّم.

كانَ أمامَ الصَّبيِّ اليَتيمِ بَطَلِ حِكايتِنا خياران: واحِدُهما أن يعودَ أدراجَه إلى ميتَمِ برمّانا، وثانيهُما أن يَسيرَ في بلادِ اللهِ الواسِعَة حيثما تأخذُه قدماه. بالنِّسبَةِ للمَيتَم فقد تعوَّدَ على نسيانِه وتخَطِّيْهِ بالكامِل طوالَ سَنَةٍ ونصفِ السَّنَة عندَ الرَّجُلِ الطيِّب الذي تَبَنَّاه، وأمّا المَدرسَة! فهيَ المُتوَازي الشَّبيهُ بالمَيتَم الذي أحبَّه الفتى. شَغَفَتِ المَدرسَةُ فؤادَ الصَّبيّ، وهو يُفكِّرُ بالرُّجوعِ إليها ريثما يَرفعُ لهُ المَجْهولُ الحُجُبَ عَن أسرارِهِ. قامَ ذاتَ ليلةٍ وجمَعَ في الحَقيبَةِ الصَّغيرَةِ بعضَ مَلابسِهِ، وبينَها الوَديعةَ الثَّمينَةَ إنجيل وَفاء!

وخرجَ على مَهلٍ لكي لا يُحدِثَ ضجَّةً، وخبّأها في شَجَرَةٍ على الطَّريق قريبَةٍ منَ البَيت. وفي اليَومِ التالي صباحًا أخذَ الحقيبَةَ معه وهو ذاهب إلى المَدرَسَة. إنسِحابٌ تَكتيكيٌّ من مَعمَعَةٍ لاهبَةٍ في هذا البَيت لن يَنجوَ من رَشقاتِ حُمَمِها البتَّة! تركَ المَدرسَةَ عَصرْا، ثمَّ لمْ يَرجعْ إلى البَيت.. بل راحَ يَدخلُ في زُقاقٍ ويخرجُ من شارعٍ سَيرًا على قدَمَيه، حتى وصلَ إلى الوَرشَةِ قبَيلَ حُلولِ الظَّلام. كانَ متسكِّعًا تائهًا طوالَ اليَوم. وكانَ قد عزَمَ أن يَنامَ ليلتَه الأولى في ورشَةٍ لعَمارَةٍ يَعرفُها في أحَدِ الأحياءِ في العاصِمَة، فقصَدَ إليها. كانَ عمَّالُ الوَرشَةِ المِصريُّون والهُنود ينامون في تَخشيبَتَين بجانبِها. فاقترَبَ الولَدُ واستأذَنَهم أن يَسمَحوا له أن يَبيتَ ليلةً واحِدَة فقط في العَمارَة. فأعطوهُ إسفنجَةً وإحرامًا، فشَكرَهُم وقالَ لهم:

– سأنامُ على السَّطح.

سألَه واحدٌ منهم:

– إبنُ مَن أنت؟ وإلى أينَ أنتَ ذاهب؟

فأجابَ الغلامُ مُرتجِلاً:

– لقد تشاجَرتُ معَ والِدي.. وأنا هاربٌ من سَوْرَةِ غضَبِه.

ثمَّ حملَ فرشتَهُ وإحرامَهُ وصعدَ إلى السَّطح، وافترَشَ لهُ بجانبِ جدارِ بَيتِ الدَّرَج واستلقى. ولكنَّ النَّومَ جافاه! شَعرَ فجأةً بنوبَةٍ منَ الضّعف، وخُيِّلَ له أنّه ربَّما تسرَّعَ في مُغامَرَتِه هذه. إلى أينَ هو ذاهب؟ ماذا يُخبِّئُ له المَجهول؟ لا أحَدَ ينتظرُهُ في مكانٍ ما! أينَ سَيَبيتُ ليلاتِهِ التَّاليَة؟ كيفَ سيؤمِّنُ طعامَه؟ ألفى نفسَه قد تحوَّلَ فجأةً إلى قِطٍّ فارٍّ جائِع يجولُ في أزقَّةِ التِّيْه.. وباحثًا في قُمامَةِ العبَثِ عمَّا يُبقيهِ على قيدِ الحياة. وبينا فكرَةُ الطَّعامِ تَخزُ خَيالَه.. سمِعَ وَقعَ أقدامٍ على الدَّرَج.. ثمَّ ظهرَ قدّامَه أحَدُ عمَّالِ الوَرشَة، وَقالَ له:

– جئتُ أطمئِنُّ عليك. خذْ هذه سَندويش صَعتر وبَندورَة.. لا بُدَّ أنَّكَ جائِع يا ولَد.

– بلى أنا جائِع.. أشكرُكَ من كلِّ قلبي يا معلِّم. قالَ من فَورِه ومدَّ يدَه لأخذِ السَّندويش.

ثمَّ توارى العامِل. وراحَ هو يَزدَرِدُ طعامَه، ويفكِّرُ في أنَّ الدَّاهِمَ الأكثرَ إلحاحًا تأمينُ قوتِهِ اليَوميّ، وبالتّالي فهو يحتاجُ لنقود، ويَعني هذا أنْ يَجدَ عملاً.. أو يقعَ وَقعَةً شَبيهةً بوَقعَةِ صديقِ المَيتَمِ القديم دوري! وفكَّرَ كذلِكَ في أن يَعمَلُ في هذِه الوَرْشَةَ! ولكنَّها في محلَّةٍ ليسَت بَعيدَةً عنِ البَيت، ولا بدَّ أنَّ والدَهُ يبحثُ عنه الآن. وَعانقَتِ السَّاعاتُ مُنتصَفَ اللَّيل.. ثمَّ شيئًا فشَيئًا بدأ النُّعاسُ يتسلَّلُ إلى مُقلتَيه ويَدُ الكرَى تُطبقُ أجفانَهُ النَّاحِلَة. في صَبَاحِ اليَومِ التالي صَحَا باكرًا على ضَجيج وصياحِ العمَّال. قفزَ من رُكنِهِ.. وحمَلَ فرشتَهُ والإحرام ونزلَ عندَ العامل الذي أقرَضَه إيّاهما وشَكرَه.. ثمَّ تركَ الوَرشَةَ.. وعادَ إلى مَسيرَتِهِ نحوَ المَجهول في الشّارعِ الطَّويلِ الذي تُحيطُهُ الأشجارُ عن جانبَيهِ، جُنودًا يَحرُسونَ قدرَ الإنسان العُرفِيّ، نحوَ شماليِّ المدينة. وعبَرَ نصفَ النَّهار وهو يَمشي. عندَ الظَّهيرَةِ بدأَ يشعرُ بالجوع.. لم يتوقَّف.. وتابعَ سَيرَهُ حتى انتابَتهُ رَغبةٌ عَميقةٌ في الصَّلاة. جلسَ تحتَ الشَّجَرة وَصَلَّى لعشر دقائِق. ثمَّ عادَ إلى مَسيرَتِه، حتى السَّاعةِ الرَّابعَة، وتوقَّفَ أمامَ مَطعم فلافل صَغير. فدخلَ وارتجلَ الكلامَ بكلِّ بساطة.. هيَ حِكمةُ الجائِعين:

– أنا يَتيمٌ يا سيِّدي. لقَدْ هَرَبتُ منَ المَيتَم وليْسَ مَعي نقودٌ الآن.. وأنا جائِع.

فتبادَلَ الجالسُ وراءَ الصُّندوق والذي يعمَلُ السَّندويشات النَّظَرات مُستَغربَيْن. ثمَّ قالَ له هذا الأخير:

– لا بأس.. سأعملُ لكَ سندويشتَين زوَّادَة لك، وواحِدَة تأكلُها الآن.

– شكرًا لكَ يا سيِّدي.. أنتَ رَجُلٌ طيِّب. قالَ الفتى والفرَحُ يومِضُ في ناظرَيه.

ثمَّ حمَلَ سَندويشتَي الفلافل كأنَّهما صَيدَةٌ موفَّقَة، وقسَّمَهُما لأربَع وَجبَات، كلَّ وجبَةٍ بنصفِ سَندويشَة، وهكذا ضمِنَ غذاءَه ليومَين تاليَين سندويشة فلافل واحِدَة لكلِّ يَوم.. والثالثة راحَ يأكلُها وهو يَمشي. وفي اللَّيلتَين التاليَتينِ نامَ على سَطحِ إحدى البنايات، والتَحَفَ بقِطعَتَين من ملابسِه. وفي اليَومِ الثّالث قامَ باكرًا وسَارَ نحوَ الشِّمال حتى وصلَ إلى شاطِئِ صَيَّادي السَّمَك، وكانَ الوقتُ عَصرًا. كانَ هناك ثلاثُ خيام مصنوعَة منَ القصَب وتَخشيبَتان.. متناثِرَةٌ على ذلِكَ الشَّاطِئِ الفَسيح. رآها الغُلامُ منَ الطَّريق العامّ،

فولَجَ الدَّربَ التُّرابيِّ الضيِّق بينَ الصُّخورِ البُنيَّةِ في اتِّجاهِ البَحر. دَخلَ تخشيبَةً منَ الاثنتَين.. فكانَ هناكَ رجُلان يتحادَثان وثلاثةُ مَخادِع من أحجارِ الخَفَّان وأدواتُ الصَّيد. ألقى الصَّبيُّ التحيَّةَ على الرَّجُلَين.. وقالَ مُوَضِّحًا غايتَه:

– أنا يَتيمٌ مقطوع من الشَّجَرَة. وأنا أبحَثُ عن عَمَلٍ. دَعوني أعمَلْ وآكلْ معَكم ولا أريدُ شيئًا آخَر.. ولمدَّةٍ قصيرةٍ ريثما يَنجَلي وَضعي وأعرف ماذا سأفعَل.

فقالَ لهُ واحِدُهُما ذو لِحيَةٍ بَيضاءَ بنَبرَةٍ حازِمَةٍ.. وفي عَينَيهِ حَذَرٌ وارتياب:

– يَتيمٌ مَقطوع منَ الشَّجَرَة.. وتريدُ عَمَلاً؟!!

– بلى. أجابَ الفتى بعفَويَّة.

– بل أنتَ لِصٌّ مُحتالٌ مُشَرَّد! إذهَب يا هذا وفتِّشْ عن رزقِكَ في غيرِ ربوعِنا.

فاستوقفَهُ الرَّجُل الثَّاني وسأَلَ:

– لحظَة! وكمْ مِنَ الوقت ستبقى هنا؟

– صدِّقني يا سيِّدي.. أسبوع أو اثنَين لا أكثر.

– وبعدَ الاسبوعَين.. ماذا ستفعَل؟

– أرْحَلُ.. وسَوفَ أجِدُ عَمَلاً ومكانًا أبيتُ فيه. أجابَ الفتى.

– ولكن.. أينَ وكيفَ كنتَ تَعيش؟!

– في المَيْتَم. قالَها كمِدًا.

فقالَ الرَّجُلُ الأوَّل ذو اللِّحيَةِ البَيضاء مُتذمِّرًا:

– حَتمًا فعَلَ فَعْلَةً مُشينَة. صمتَ لثوانٍ، ثمَّ عادَ وأضافَ موَجِّهًا الكلامَ إلى الفتى:

– إسمَعْ يا ولَد.. نحنُ لسنا ضالَّتَكَ المنشودَة. ليسَ لنا ذهَبٌ ولا مال. نحنُ نعيشُ "أعطِنا خبزَنا كِفافَ يَومِنا". وصَيْدُنا في السَّمَك هو ثروتُنا الوَحيدَة في هذه الدُّنيا، فهَلْ تُريدُ أنْ تسرِقَ أسماكَنا؟!

فأجابَ الفتى:

– أنا لمْ أفعَل ما يُشين يا سيِّدي. ولو كنت أريدُ أن أسرقَ لما اختَرتُ السَّمَكَ هدفًا لسَرقَتي. أنا أريدُ أنْ أؤَمِّنَ طعامي الآن.

قالَ الرَّجُل الثاني مُلِحًّا:

– أخبرْنا قِصَّتَكَ الحَقيقيَّة.

فقالَ الفتى عندئذٍ:

– حسنًا. لقد أخذَني رَجُلٌ طيِّب منَ المَيتَم وجعَلَني ابنَه.. وعِشْتُ عندَه مُدَّةً منَ الزَّمَن.. ثمَّ بدأتِ المَشاكِلُ في بيتِهِ.. وأثَّرَتْ عليَّ مشاكلُهم ففَضَّلتُ الرَّحيل. والرَّجُلُ الطيِّبُ لا بُدَّ يَسعى ورائي الآن. ووجودي هنا أفضَلُ مكانٍ أختبئُ فيه.

فتنَحَّى الرَّجُلان.. وراحا يتحادثانِ بصَوتٍ خافتٍ ويتشاوران. ثمَّ قالَ بعدَها الرَّجُل الثّاني:

– حَسنًا.. ليسَ لكَ عندَنا عمَل. ولكن سنُبقيكَ هنا لأسبوعٍ.. تساعدُنا في أعمالٍ شتّى.. ونُطعِمُكَ من أكلِنا رَيثما تنجَلي أمورُك. وأمّا إذا كنتَ كاذبًا! وأنتَ هاربٌ منَ الشُّرْطَة.. فسوفَ يَعثرونَ عليكَ عاجلاً أم آجلاً.. صدِّقني يا هذا.

وفرِحَ الولَدُ لقبُولِهِ بينَ الصيَّادين. وبَقيَ معَهُم زُهاءَ عشرَةِ أيّامٍ يُساعِدُهم عتَّالاً ومُنظِّفًا وغاسِلاً للأواني وأدواتِ الصَّيد. وذاتَ ليلةٍ رأى الولَدُ، وهو نائمٌ فوقَ إحرامٍ مفروش على أحجارِ الخفّان، شبحَ الرَّجُلِ ذي اللِّحيَةِ البَيضاء يَنهضُ من مُخدَعِهِ ويأتي ويَعبثُ بالحَقيبَةِ الصَّغيرَةِ وما فيها.. كأنَّهُ يتحَرَّى عنْ شَكٍّ يَطوفُ في ذِهنِه. لم يُحَرِّكِ الفتى ساكِنًا تَحاميًا للمَشاكل. ورآهُ ينبُشُ بينَ ملابسِهِ الإنجيلَ وتذكرَةَ الهُويَّةِ ورَاحَ يَنظرُ فيهما

بمِصباحِ يَدٍ صَغير معَهُ. وأدرَكَ الفتى أنَّه افتُضِحَ أمرُه.. وعُرِفَتْ هويَّته وَهويَّةُ والدِه الرَّجُلِ الطيِّب، وأنَّ ذا اللِّحيَةِ البَيضاءِ هذا لا يُحبُّه.

- مُنير سويدان!! قالَ المُحقِّقُ شَكيب مُدَوَّر لصَخر مُقاطعًا كلامَه. ثمَّ أضافَ أيضًا:

- وفتى مَيتَمِ العازاريَّة في برمَّانا هو أنتَ يا صَخر سويدان. فقالَ له مُحدِّثُه:

- حسَنًا.. لقد وصلنا الآن إلى منتصَفِ الرِّحلةِ سالِمَين.. وما زالَ أمامَنا شَوطٌ كبير وهو بَيتُ القصيد!

ثمَّ قُرِعَ جَرَسُ الباب.. فنهَضَ المُحقِّقُ وهو يقول:

- لقد جاءَتِ المازَة.

ودَخَلَ خادمُ المَطبَخِ بعربَتِهِ المَصنوعةِ منَ السْتنلِسْ سْتيل المُزَخرَف، وأفرغَ حُمولتَها بلُطفٍ على طاولةِ الشُّرفةِ السَّوداءِ المُنخفضَة وذَهَب. سكَبَ المُحقِّق كأسين.. ومَدَّ يدَهُ وتناولَ حَبَّتَين منَ البُزُورات.. وقال:

- تفَضَّل يا صَخر.. تفَضَّل. لقد بدأتْ تتَشكَّلُ في مُخيِّلتي سيناريوهات مُحتمَلة.. بدءًا من هذه النُّقطةِ التي أوصلتَني إليها وحتى ١٩ تشرين الأوَّل ٢٠١٥.

مَجَّ صَخر سويدان مَجَّةً من سيكارَتِه وعادَ إلى مُتابَعَةِ كلامِه:

سأتحدَّثُ الآنَ بصيغةِ المُتكلِّم.. كَوْني أصبَحْتُ أنا بَطلَ حِكايتي.. أليسَ كذلك؟

- وهوَ كذلِكَ. أجابَ المُحقِّق.

في صَباحِ اليَومِ التالي، يا سيِّدي الكريم، نهَضتُ باكِرًا لأنِّي لم أنَمْ قطّ! وكانَ الصَيَّادون في عرضِ البَحر منذ منتصَفِ اللَّيل يَرمونَ قِفَفَهم في الماء. خَرَجتُ من بابِ التَّخشيبةِ، وكانت الظُّلمة تلفظُ أنفاسَها الأخيرة، وفجأةً! تعثَّرْتُ بشَيءٍ غريبٍ بَينَ الصُّخور والحَصَى حيث أنشرُ الملابسَ على جذوعِ الأشجار. وَتحقَّقتُ من هذا الشَّيء.. فإذا هو جثَّة!! أصبتُ بذُعر شَديد!! فدَخلتُ مُسرعًا إلى التَّخشيبةِ.. وارتدَيتُ ملابسي بلا أدنى تفكير.. وحشَوْتُ أغراضي كلَّها في حَقيبَتي، والقمصانَ المَنشورَة، ورُحتُ أعدو نحوَ

الطّريق قبلَ أن يشعرَ بي أحَدٌ من الصيَّادين في الخيَمِ القَصَبيَّةِ المُجاورة. لقد حضَرَني مَشهَدُ الشُّرطةِ والأصفاد وقضبانِ السِّجن. ركضتُ فوقَ الأزقَّةِ التُّرابيَّة نحوَ الشّارع العامّ لا ألوي على شَيْء. ورُحتُ أجتازُ المسافاتِ الطّويلة في شِبهِ هَرولَةٍ.. وللحظَةٍ كدتُ أقتنِعُ بأنِّي ارتكَبتُ جُرْمًا وأنا الآن طريدُ العَدالة! كنتُ أتلفَّتُ يَمينًا وشِمالاً علَّ أحدًا يُلاحِقُني ويُريدُ الإمساكَ بي. ليسَ معي نقود، فقط رحمة الله هي رفيقي الوَحيد. وصلتُ إلى بلدَةِ نهر ابراهيم السَّاحليَّة في المَساء.. ورُحتُ أبحَثُ عن ورشَةٍ أو عَمارَةٍ مَهجورَةٍ أبيتُ ليلَتي على سَطحِها. ولكنّي لم أحصَلْ على غايتي البسيطَة هذه. فقد طوَّقني فجأةً! في وسَطِ البلدَةِ سيّارتان خرَجتا منَ العدَم، ونزلَ منها رجالٌ تَحَرِّيُّون. وصاحَ بي واحدُهم صَيحَةً مُرعبَةً، ويدُهُ على سِلاحِهِ المَشكوكِ في خَصرِه.. كأنِّي مُجرمٌ خطيرٌ واسمي مُدرَجٌ على لائِحَةِ الإرهاب:

- مكانَكَ يا صَخر سويدان.. وَيَداكَ في الهَواء!

وقفتُ مكاني كالصَّنَم! ألقيتُ حقيبَتي على الأرض ورَفعتُ ذراعيَّ فوقَ رأسي.

وهكذا ألقيَ القبضُ عليَّ.

وفي سيَّارةِ الشُّرطةِ انتابَتني نَوبَةٌ عارمةٌ منَ البُكاء. سألتُ التَّحرِّي بجانبي:

- ماذا فعَلتُ يا وَطَن؟

بقيَ صامتًا. وأعدتُ السُّؤال:

- هل ستُعيدونَني إلى والِدي؟ والِدي يبحَثُ عنّي أليسَ كذلِكَ؟!

فأجابَ التَحرِّيُّ بحَزْم:

- لا.. نحنُ نُريدُكَ أنت.. وستَعرفُ كلَّ شَيْءٍ عَمَّا قريب.

فانتابَني خَوفٌ مَشوبٌ بكآبةٍ غامضَة. كفكَفتُ دَمْعي.. وأدركتُ فداحةَ خطَئي في تركي بَيتِ أبي منير سويدان. وحَضَرَني مَشهدُ دوري واللّحظات القلِقَة التي عشتُها أثناءَ

عَودَتِه منَ السِّجن، كأنَّها تعويذةٌ لا خلاصَ منها البتّة. أنا شُجاعٌ بالنِّسبةِ إلى صبيٍّ في مثلِ عمري، ولكن ليسَ في لُعَبِ الكبارِ هذه. هناكَ جثَّةٌ وجَريمةَ وَصَبيٌّ يَتيمٌ مُتبَنًّى وهَاربٌ.. ستكونَ التُّهمَةُ مناسبةً لي وَعَلى قَدِّي وقياسي بالتَّمام. عرفتُ فيما بعد أنَّ ذا اللِّحيَةِ البَيضاء الذي عَبَثَ بحَقيبَتي وعرفَ هُويَّتي هو الذي أخبَرَ عنِّي عندَما وَجدوا الجُثَّةَ وَجاءَتِ الشُّرطة. وهكذا أدخلوني إلى نَظارَةِ الأحداث حيثُ بَقيتُ شَهرًا قبلَ أن يستجوبَني أحَد! والنَّظارَةُ صُورَةٌ مُصغَّرَة عن جُهنَّم. فيها الأولادُ الأشقياء من عمر ثماني سنوات إلى الثمانية عشَر. هناكَ أذاقني كذِبُ الأولادِ وتهامُسُهُم عليَّ ألوانًا شتّى منَ الخَوف. قالَ لي واحدُهم أنَّ عقوبةَ جَريمةِ القتل هيَ المُؤبَّد، وسأبقى في السِّجنِ مدَى الحيَاة! وآخرُ قالَ أنَّ عشرين سنةً كافيَة. وآخرُ أيضًا قالَ لي:

- الأفضَل لكَ أن تعترفَ فيخفِّفوا الحُكم.. وإلاّ فلن تخرُجَ منَ السِّجن إلاَّ شَيخًا عَجُوزًا.

كنتُ أبكي أحيانًا، وأتجَالدُ وأتقوّى أحايينَ أخرى. أنا لمْ ارتكِبْ جُرمًا.. وسيكتشفونَ براءَتي عمَّا قريب. ولكنّي لمْ أدركْ بأنَّهُ لساعةِ اكتشافِهِم براءَتي سأكونُ قد تحوَّلتُ إلى إنسانٍ آخر. القَهْرُ والظُّلمُ ولَّدَا فيَّ ثورَةً وقسَاوَة. والشَّرُّ في النّظارَة أقنعَني بأنَّ الحَياةَ صِراعٌ والبَقاءُ للغالبين. كانَ بَيْنَ هؤلاءِ الأولاد أيتامٌ كثُر أيضًا.. منهم السَرّاقُ ومنهم من يتعاطى ويروِّجُ المُخدِّرات ومنهم من حاولَ القتل ومن قتلَ أيضًا.. ومنهم من ابتُليَ بمصيبةٍ هوَ الآخر نظيري. بعدَ أيّامٍ.. لا أذكر كم.. جاءَ مُنير سويدان إليَّ في سِجني. هالَه مَنظَري وشُحوبي! لقد رأيتُ نفسي في عَينَيه.. كنتُ كأنِّي شبَحٌ مُخيفٌ آتٍ من العالمِ الآخر. أكَّدْتُ له أنّي لم أفعَلْ شيئًا.. وأكَّدَ لي هو الآخر أنّه لن يتخلّى عنّي، وسيوكِّلُ لي مُحاميًا. عرفتُ عندَها عُمْقَ مَحبَّةِ هذا الإنسانِ لي. حُبُّه لي كانَ سفينةَ نَجاتي. وهكذا بَقيتُ في السِّجنِ لعشرَةِ أشهر قبل أن ظَهرَتِ الحَقيقَة. وما ذقتُهُ في هذِهِ الأشهُرِ.. الدَّهر.. كانَ كافيًا لي. وفي نهايةِ المطاف أُخلِيَ سَبيلي.. وعُدتُ إلى بَيتِ مُنير سويدان.. لأكتَشِفَ هناكَ أنَّ زَوْجَتَهُ هَجَرَتْهُ وهو يَسْعَى للطَّلاق.

*****